ليتفكروا

عوائق النهضة: غياب النقد الذاتي

د. بدران بن الحسن*

إن أمة تسعى للخروج من التخلف والهامش، والانتقال إلى تحقيق النهضة الحضارية، وتحقيق الحضور بين أمم العالم، لجديرة بأن تسعى إلى التخلص مما يعوقها عن تحقيق ذلك، قبل أن تبدأ بوضع لبنات البناء الجديد، وتحقيق الممكنات التي تساهم في بناء مشروعها النهضوي.

ولعل من معيقات تحقيق نهضتنا، غياب النقد الذاتي. وهذه المشكلة ليست جديدة في الحقيقة، بل مشكلة مستعصية، تنبه لها رواد الإصلاح والتجديد بمختلف مدارسهم، لكنها لم تجد حلها بعد، ولم تتحول إلى ثقافة؛ أي لم يتحول النقد الذاتي إلى مبدأ وسلوك يومي في أعمالنا ومواقفنا وأفكارنا، أفرادا وجماعات ومؤسسات ومجتمعات. ولقد شعر مالك بن نبي رحمه الله منذ وقت مبكر من نشاطه الفكري الإصلاحي بأن المثقفين في العالم الاسلامي لم يهتموا بالنقد، ولم يدرجوه برنامجا ضمن برنامجنا الثقافي لبناء ثقافة النهضة. حيث يقول: «فمثقفو المجتمع الإسلامي لم يُنشئوا في ثقافتهم جهازاً للتحليل والنقد إلا ما كان ذا اتجاه تمجيدي يهدف إلى إعلاء قيمة الإسلام. أما القادة السياسيون فإنهم لم يؤمنوا بضرورة إنشاء مثل هذا الجهاز ليراقبوا مسيرة العمل في بلادهم. هكذا أضحى عمله التاريخي منذ قرن خارج مقاييس الفعالية، وأضحى تنفيذه في ظل فوضى الأفكار. وإذا وجد هذا العمل نفسه مصطدماً بصعوبات، وأهدار للوقت، وتبديد للوسائل وانحرافات؛ فذلك ناتجٌ عن عدم التماسك في الأفكار، وطغيان الأشياء أو طغيان الأشخاص»(مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص79-78).

إن عدم تماسك الأفكار وطغيان الأشياء أو الأشخاص، يتسبب في فوضى الأفكار، وبناء عليه يؤدي إلى تعطيل أي مشروع للخروج من التخلف بمختلف أبعاده، ولا علاج لذلك إلا بتحويل النقد الذاتي ركنا اساسا في ثقافتنا، بحيث نربي أبناءنا وأنفسنا على نقد أفكارنا ومواقفنا وتصرفاتنا، كما ينبغي أن ندرج النقد الذاتي ضمن برامجنا التربوية والثقافية، لتتكون لنا حساسية ضد الفوضى، وضد تنكب سنن الله في الكتاب وفي الانفس والافاق والتاريخ، ويتشكل عندنا وعي سنني، نتحصن بموجبه من الفوضى التي نعيشها.

ولعل أحدنا يتساءل عما نعنيه بالنقد الذاتي، فنقول أن من أهم معاني النقد في اللغة مما له صلة بموضوعنا أن النقد تمييز الجيد من الرديء، والخبيث من الطيّب، والحسن من القبيح. وحتى يكون النقد إيجابيا فإنه يعمد إلى تثبيت الطيب والإيجابي والجيد والحسن، ويطرح جانباً كل خبيث ورديء وقبيح.

وكما يقول الأستاذ سلمان العودة في كتابه (لماذا نخاف النقد) أن النقد في الشرع يعني: معرفة الخطأ والصواب، ويعني: الثناء على الخير ومدحه، وذم الشر ونقده، سواء أكان هذا الخير أو الشر في شخص، أو كتاب، أو عمل، أو هيئة، أو دولة، أو جماعة، أو أمة، أو غير ذلك. وهذا هو المعروف لدى أهل العلم والإيمان أفرادًا. فهناك موازنة بين جهتين في الشيء أو الفعل، ثم فيه تثبيت لإحداهما ونفي للأخرى.

ومن هنا نقول: إن عملية النقد في معناها الحقيقي ممارسة الملاحظة الدقيقة على الفعل البشري في أي صورة كان؛ فكرة أو ممارسة، ووزنه بالمعيار العلمي، وإعمال الموازنة بين سلبياته وإيجابياته، ثم محاولة الحفاظ على الإيجابي منه، وتثمينه، والدفع به إلى الاستمرار، والبحث عن كوامن الزلل والانحراف والغلو المنتجة للجانب السلبي لذلك الفعل وتفكيكها وعزل مفعولها، وتقويم ذلك الزلل حتى لا تحدث هزة في الفعل، وحتى يتكامل الفعل وينمو خالياً من كوامن الخلل، ويؤتي ثماره.

والنقد بالمفهوم الإيجابي رصد الإنسان في دوائره المتعددة؛ فردا وجماعة، وتمحيص ما كسب وما اكتسب بالتعبير القرآني (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت)، حيث يزن الإنسان الفكرة أو التصرف بحسناته وسيئاته، ويهب قليله لكثيره، فإذا كانت له إيجابيات أكبر مما عليه من سلبيات على المدى القريب والبعيد عدّ الفعل حسناً، وإذا كان على غير ذلك عدّ الفعل سيئاً.

أما المقصود بالذاتي، فإنا نعني به أن نمارس نحن النقد لأنفسنا، في أقوالنا وافعالنا، وفي مستوانا الفردي والجماعي، وفي مستوانا المؤسسي والمجتمعي. ولا ننتظر أن ينتقدنا غيرنا، أو يسمنا ويصنفنا تصنيفات من عنده؛ سواء أكانت صحيحة ام خاطئة. وحتى وإن كان النقد من خارجنا، فإنه ينبغي علينا تقبله، وذلك إذا استطعنا أن نحول النقد إلى جزء أصيل من ثقافتنا وبرامجنا ومؤسساتنا.

وللأسف فإننا نحن المسلمين اليوم، بمختلف توجهاتنا، نعاني في أغلبنا من عقدة رفض النقد، الأمر الذي يجعلنا نتمادى في أخطائنا من دون أن ننتبه لها، وقد يكون سبب هذا الرفض هو التهرب من تحمل مسؤوليات نتائج الانحرافات التي تحدث بين الحين والآخر في مسيرتنا النهضوية، بحيث أنه يتم اللجوء إلى اتهام الآخر أحيانا واتهام التراث في أحايين أخرى لتبرير العجز أو الخطأ في مقابل الحذر المفرط من توجيه جهاز النقد والفحص للذات. كما أن ثقافتنا المتداولة تفتقد إلى بعد مهم في برنامجها، وهو بعد النقد؛ والنقد الذاتي بخاصة.

وآن لنا أن ندرج التعليم والتدريب على نقد الذات ضمن برامجنا التربوية، ليتحول نقد الذات وموازنة افعالها وتصرفاتها ضمن ثقافتنا المتداولة، لنفتح الطريق إلى الخروج من الفوضى وتحقيق الفعالية.

مركز ابن خلدون للعلوم الإنسانية والاجتماعية/ جامعة قطر

الحكمة قيمة إسلامية رفيعة:

في أنواع الحكمة ودرجاتها

د. علي محمد الصلابي

ذكر العلماء مفهوم الحكمة في القرآن الكريم، والسنة النبوية، واختلفوا على أقوال كثيرة، فقيل: الحكمة هي النبوة، وقيل: القرآن، والفقه به: ناسخه، ومنسوخه، ومحكمه، ومتشابهه، ومقدّمه، ومؤخره، وحلاله، وحرامه، وأمثاله.

وقيل: الإصابة في القول، والفعل. وقيل: معرفة الحق، والعمل به. وقيل: العلم النافع، والعمل الصالح. وقيل: الخشية لله. وقيل: السنة. وقيل: الورع في دين الله. وقيل: العلم، والعمل به، ولا يسمى الرجل حكيما إلا إذا جمع بينهما. وقيل: وضع كل شيء في موضعه. وقيل: سرعة الجواب مع الإصابة. وقد ذكر بعضهم تسعة وعشرين قولا في تعريف الحكمة.ويمكن تقسيم الحكمة إلى نوعان:

النوع الأول: حكمة علمية نظرية، وهي الاطلاع على بواطن الأشياء، ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها خلقاً، وأمرا، وقدراً، وشرعاً.

النوع الثاني: حكمة عملية، وهي وضع الشيء في موضعه.(ابن القيم،1989، ج2، ص478)

فالحكمة النظرية مرجعها إلى العالم، والإدراك، والحكمة العملية مرجعها إلى فعل العدل، والصواب، ولا يمكن خروج الحكمة عن هذين المعنيين؛ لأن كمال الإنسان في أمرين: أن يعرف الحقّ لذاته، وأن يعمل به، وهذا هو العلم النافع، والعمل الصالح.

وقد أعطى الله عز وجل أنبياءه، ورسله، ومن شاء من عباده الصالحين هذين النوعين، قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام في [سورة الشعراء: 83]: {رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا}، وهو الحكمة النظرية {وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ *} وهو الحكمة العملية.

وقال تعالى لموسى عليه السلام في [سورة طه: 14]: {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا}وهو الحكمة النظرية {فَاعْبُدْنِي}وهو الحكمة العملية .

وقال عن عيسى عليه السلام في [سورة مريم: 30 . 31]: {إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا *} وهي الحكمة النظرية {وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا *} وهو الحكمة العملية .

وقال في شأن محمد صلى الله عليه وسلم في [سورة محمد: 19]: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ}وهو الحكمة النظرية و{اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ} وهو الحكمة العملية .

وقال في جميع الأنبياء في [سورة النحل: 2]: {يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا}وهو الحكمة النظرية ، ثمّ قال: {فَاتَّقُونِ}وهو الحكمة العملية .(الرازي، 1999، ج7، ص68)

الحكمة العملية لها ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: أن تعطي كل شيء حقّه، ولا تعدّيه حدّه، ولا تعجله عن وقته، ولا تؤخره عنه. لما كانت الأشياء لها مراتب، وحقوق تقتضيها، ولها حدود، ونهايات تصل إليها، ولا تتعداها، ولها أوقات لا تتقدم، ولا تتأخر؛ كانت الحكمة مراعاة هذه الجهات الثلاث بأن تعطي كل مرتبة حقها الذي أحقه الله لها بشرعه، وقدره، ولا تتعدّى بها حدّها، فتكون متعديا مخالفا للحكمة، ولا تطلب تعجيلها عن وقتها، فتخالف الحكمة، ولا تؤخرها عنه، فتفوتها، وهذا حكم عام لجميع الأسباب مع مسبباتها شرعاً، وقدراً، فإضاعتها تعطيل للحكمة بمنزلة إضاعة البذر، وسقي الأرض، وتعدي الحق كسقيها فوق حاجتها، بحيث يغرق البذر والزرع، ويفسد، وتعجيلها قبل وقتها كحصاده قبل إدراكه وكماله، وهذا يكون فعل ما ينبغي على الوجه الأكمل في الوقت المناسب.(ابن القيم،1989، ج2، ص479)

الدرجة الثانية: معرفة عدل الله في وعيده، وإحسانه في وعده، وعدله في أحكامه الشرعية، والكونية الجارية على الخلائق، فإنه لا ظلم فيها، ولا جور.

قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا *}[النساء: 40]، وكذلك معرفة بره في منعه، فإنه سبحانه هو الجواد الذي لا ينقص خزائنه الإنفاق، ولا يغيض ما في يمينه سعة عطائه، فهو سبحانه لا يضع بره، وفضله إلا في موضعه، ووقته بقدر ما تقتضيه حكمته، فما أعطى إلا بحكمته، ولا منع إلا بحكمته، ولا هدى، ولا أضل إلا بحكمته.

الدرجة الثالثة: البصيرة، وهي قوة الإدراك، والفطنة، والعلم، والخبرة. والبصيرة هي أعلى درجات العلم التي تكون نسبة العلم فيها إلى القلب كنسبة المرئي إلى البصر، وهذه الخصيصة التي اختص بها الصحابة عن سائر الأمة ثم المخلصين من أتباع النبي صلى الله عليه وسلم وهي أعلى درجات العلماء.(ابن القيم،1989، ج2، ص482)

قال تعالى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ *} [يوسف: 108] فقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يخبر الناس: أنَّ هذه طريقته، ومسلكه، وسنته، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يدعو إلى الله على بصيرة من ذلك، ويقين، وبرهان، وعلم، وكل من اتبعه يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم على بصيرة، ويقين، وبرهان عقليّ، وشرعي.(ابن كثير،1970،ج2، ص496)

والبصيرة في الدعوة إلى الله تنقسم إلى ثلاثة أمور :

الأمر الأول: أن يدعو الداعية على بصيرة فيما يدعو إليه بأن يكون عالما بالحكم الشرعي فيما يدعو إليه ؛ لأنه قد يدعو إلى شيء يظنّه واجباً؛ وهو في شرع الله غير واجب، فيلزم عباد الله بما لم يلزمهم الله به، وقد يدعو إلى ترك شيء يظنه محرماً؛ وهو في دين الله غير محرم، فيحرم على عباد الله ما أحله الله لهم.

الأمر الثاني: أن يكون على بصيرة بحال المدعو، فلابدّ من معرفة حال المدعو : الدينية، والاجتماعية، والاعتقادية، والنفسية، والعلمية، والاقتصادية ؛ حتى يقدّم له ما يناسبه.

الأمر الثالث: أن يكون على بصيرة في كيفية الدعوة، وقد رسم الله طرق الدعوة، ومسالكها في آيات كثيرة منها: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ} [يوسف: 108] وهذه قاعدة قوية متينة في الدعوة إلى الله تعالى، ثم تكون هذه القاعدة متفرعة إلى ثلاثة أبواب: وهي: الدعوة إلى الله بالحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن. قال تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}[النحل: 125].

أما الباب الرابع: في الدعوة إلى الله باستخدام القوّة عند الحاجة إليها، كما قال تعالى: {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ} [العنكبوت: 46] ولاشك: أن أحسن الطرق في دعوة الناس طريقة القرآن، ومخاطبته لهم، ومجادلتهم.(ابن تيمية،1995، ج19، ص173)

مراجع البحث:

علي محمد الصلابي، الوسطية في القرآن الكريم، مكتبة الصحابة،1422هـ 2001-م صص135-133

ابن القيم، تهذيب مدارج السالكين هذبه عبد المنعم صالح العلي العزي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، 1409 هـ/ 1989م.

الرازي، التفسير الكبير فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية.1420هـ1999-

ابن تيمية، مجموع فتاوى شيخ الإسلام جمع عبد الرحمن بن قاسم، الطبعة الأولى، السعودية. 1416هـ/1995م

أبو الفداء إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: عبد العزيز غنيم، وحمد أحمد عاشور، ومحمد إبراهيم البناء، مطبعة الشعب القاهرة.1390هـ1970-